قسنطينة في عيون الرحالة والجغرافيين

سعد بوفلاقة : أستاذ التعليم العالي
كلية الآداب ،جامعة عنابة

ملخص:

يتناول هذا البحث قسنطينة في عيون الرحالة والجغرافيين خلال فترات متنوعة، لأن مجمل النصوص التي وصلتنا تتعلق بهذه الفترات المختلفة، ولا شك أن الذين زاروا مدينة قسنطينة التي تزخر بمآثرها الحضارية هم كثر، لكن الذين سجلوا انطباعاتهم وملاحظاتهم يشكلون أقلية، ولذلك سأعرض نماذج في هذا البحث في وصف قسنطينة مما وصل إلينا من الرحلات ،وكتب الجغرافيا.

Abstract:

Search Constantine in the eyes of travelers and geographers: This research deals with Constantine in the eyes of travelers and geographers through various periods, because the entire texts we have received relating to these different periods, no doubt that those who have visited the city of Constantine that abound Bmatherha civilization are many, but those who have registered their impressions and comments are a minority, so I will present models in this research in the description of Constantine, which arrived to us from trips, and geography books.

تمهيد :

يتناول هذا المبحث قسنطينة في عيون الرحالة والجغرافيين، ولا شك أن الذين زاروا قسنطينة كثيرون، لكن الذين سجلوا انطباعاتهم وملاحظاتهم قليلون، وسنعرض نماذج في هذا المبحث، في وصف قسنطينة مما وصل إلينا من الرحلات وكتب الجغرافيا ...

1- ياقوت الحموي :

وصف ياقوت الحموي[1] قسنطينة في القرن السادس الهجري، فقال :قسنطينة، بضم أوله وفتح ثانيه ثم نون وكسر الطاء وياء مثناة من تحت ونون أخرى بعدها ياء خفيفة وهاء، مدينة و قلعة يقال لها قسنطينة الهواء، وهي قلعة كبيرة جدا حصينة عالية لا يصلها الطير إلا بجهد، وهي من حدود افريقية، مما يلي المغرب، لها طريق واتصال بآكام متناسقة جنوبيها تمتد منخفضة حتى تساوي الأرض، وحولها مزارع كثيرة وإليها ينتهي رحيل عرب افريقية مغربين في طلب الكلإ، وتزاور عنه قلعة بني حماد ذات الجنوب في جبال وأرض وعرة .

وبعدما تقدم، نقل ياقوت وصف البكري المذكور أعلاه في معظمه ثم أضاف قائلا: وإليها ينسب علي بن ابي القاسم محمد أبو الحسن التميمي المغربي القسنطيني المتكلم الأشعري[2] قدم دمشق وسمع بها صحيح البخاري من الفقيه نصر بن إبراهيم المقدسي، وخرج إلى العراق وقرأ على ابي عبدالله محمد بن عتيق القيرواني ولقي الأئمة ثم عاد إلى دمشق وأكرمه رئيسها أبو داود المضرج بن الصوفي، وما أظنه روي عنه شيئا من الحديث لكنه قرأ عليه بعض كتب الأصول، وكان يذكر عنه ان كان يعمل كيمياء الفضة ، ورأيت له تصنيفا في الأصول سماه كتاب تنزيه الإله وكشف فضائح المشبهة الحشوية وتوفي . بدمشق سنة 519.

2- البكري :

وقدم لنا البكري[3] وصفا دقيقا لمدينة قسنطينة، فقال: ومدينة قسنطينة، وهي مدينة أولية كبيرة آهلة ذات حصانة ومنعة ليس يعرف أحصن منها وهي على ثلاثة أنهار عظام تجري فيها السفن قد أحاطت بها تخرج من عيون تعرف بعيون أشقار، تفسيره سود، وتقع هذه الأنهار في خندق بعيد القعر متناهي البعد، قد عقد في أسفله قنطرة على أربع حنايا ، ثم بنى عليها قنطرة ثانية على الأولى ،قنطرة ثالثة من ثلاث حنايا، ثم بني فوقهن بيت ساوي حافتي الخندق يعبر عليه إلى المدينة، ويظهر الماء في قعر هذا الوادي من هذا البيت كالكوكب الصغير لعمقه وبعده ويسمى هذا البيت (العبور) لأنه معلق في الهواء، ويسكن قسنطينة قبائل شتى من أهل ميلة ونفزاوة وقسطيلية، وهي لقبائل بن كتامة وبها أسواق جامعة ومتاجر رابحة وبينها وبين مرسى سقده مسيرة يوم[4] .

3- الإدريسي :

أما العالم العربي الكبير الشريف الإدريسي[5]، فقد لاحظ أن مدينة قسنطينة عامرة وبها أسواق وتجارة، وأهلها مياسير ذوو مال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب، وتشارك في الحرث والإذخار، والحنطة، تقيم بها مطامرها مائة سنة لا تفسد، والعسل بها كثير،

وكذلك السمن يتجهز به منها إلى سائر البلاد ، ومدينة قسنطينة على قطعة جبل منقطع، مربع فيه بعض الاستدارة، لا يتوصل إليه من مكان إلا من جهة باب في غربيها، ليس بكثير السعة، وهناك مقابر أهلها حيث يدفنون موتاهم ،ومع المقابر أيضا بناء قائم من بناء الروم الأول، وبه قصر قد تهدم كله إلا قليل منه، وبه دار ملبع من بناء الروم شبيهة بملعب ثرمة من بلاد صقلية، وهذه المدينة أعني قسنطينة، يحيط بها الوادي من جميع جهاتها كالعقد مستديرا بها وليس للمدينة من داخلها سور يعلو أكثر من نصف قامة إلا من جهة باب ميلة، وللمدينة بابان، باب ميلة من الغرب وباب القنطرة في الشرق، وهذه القنطرة من أعجب البناءات،لأن علوها يزيد على مائة ذراع، بالذراع الرشاشي، وهي من بناء الروم ،قسي عليها على قسي سفلي، وعددها في سعة الوادي خمس، والماء يدخل على ثلاث منها مما يلي : جانب الغرب وهي كما وصفناها، قوس على قوس، والقوس الأولى يجري بها الماء أسفل الوادي، والقوس الأخرى فوقها، وعلى ظهرها المشي والجواز إلى البر الثاني، وباقي القوسين اللتين من جهة المدينة، فإنهما مفردتان على الجبل، وبين القوس والقوس أرجل تدفع مضرة الماء ومصادرته عند حمله بسيوله، وعلى رقاب الأرجل قسي فارغة كالنبات صغار، فربما زاد الماء في بعض الأوقات عند سيله ، فعل الأرجل ومر في تلك الفرجان ، وهي من أعجب ما رؤى من الهناء، وليس في المدينة كلها دار كبيرة ولا صغيرة إلا وعتبة بابها حجر واحد، وكذلك جميع عضادات الأبواب، فمنها ما يكون من حجرين ومنها ما يكون من أربعة أحجار، وبناؤها من التراب وأرضها كلها حجر صلد وفي كل دار منها مطمورتان وثلاث وأربع من قوة في الحجر، وكذلك تبقى بها الحنطة لبرودتها واعتدال هوائها، ووواديها يأتي من جهة الجنوب فيحيط بها من غربيها ويمر شرقا مع دائرة المدينة ويستدير في جهة الشمال ويمر مغربا إلى أسفل الجبل ثم يسير شمالا إلى أن يصب في البحر في غربي وادي سهر ، وقسنطينة من أحصن بلاد الله، وهي مطلة على فحوص متصلة ولها مزارع الحنطة والشعير ممتدة في جميع جهاتها، ولها في داخل المدينة ومع سورها مسقى يسقون منه، ويتصرفون منه عند أوقات الحصار لها ممن طرقها، وبين قسنطينة و باغايا مراحل[6].

4- ابن سعيد المغربي :

في القرن السابع الهجري، وصف ابن سعيد المغربي الأندلسي[7] قسنطينة، فقال : ... وموضوع قسنطينة في جنوبيها (القل)حيث الطول ست وعشرون درجة وأربعون دقيقة والعرض ثلاث وثلاثون درجة واثنتان وعشرون دقيقة، ولها نهر ينصب في خندقها العظيم الشرقي يسمع له دوي هائل دائر من أعلى المدينة في قعر الخندق مثل ذؤابة النجم لبعد المسافة وهذه المدينة على آخر سلطنة بجاية، وأول سلطنة بجاية، وأول سلطنة افريقية على البحر، مدينة بونة.[8]

5- العبدري :

وممن وصف قسنطينة أيضا من الرحالة العرب، محمد العبدري[9] الذي زار قسنطينة في أواخر القرن السابع الهجري، فوصفها بقوله : ثم وصلنا إلى البلد الذي نشفت الخطوب معينة، وأبت الأقدار أن تكون له معينة، بلد الوضع العجيب والموضع الخصيب، مدينة قسنطينة، جبر الله صدعها، وكفاها من نوائب الدهر ما واصل فرعها ، وهي مدينة عجيبة حصينة، غير أنها لخطوب الدهر مستكينة قد ذبلت ببوارح الغير وفوادح الضرر، حتى صارت كالحسناء لبست أسمالا والكريم فقد مالا والبطل ادخنته الجرح حتى لا يطبق احتمالا، فهي ترى الحوادث لمحا باصرا وتنادي بلسان الحال، لو أجد ناصرا .

وبها للأوائل آثارا عجيبة ومبان متقنة، الوضع غريبة وأكثرها من حجر منحوت، يعجز الوصف إتقانه ويفوت، وقد دار بها واد شديد الوعر، بعيد القعر، أحاط بها كما يحيط السوار بالمعصم، ومنعها كما يمنع النوق الأعصم، ولكن سهام الدهر لا تقيها الجنن ولا تمنع منها الفتن وريب المنون وصرف الزمن قد أعيت الحيلة فيها... ولم أربها من ينتمي إلى طلب ولا من له في فن من فنون العلم أرب سوى الشيخ أبي علي حسن بن بلقاسم بن باديس، وهكذا قيد لي اسم أبيه بخطه مخلوطا وقال أنه اسم وكنية، وهو شيخ من أهل العلم يذكر فقه او مسائل ذو سمت وهيبة ووقار، وليس في البلد من يذكر بعلم سواه البتة، وليست له بالرواية عناية ولم يرو إلا الموطأ وحده، فإنه قرأ على الشيخ الفقيه المحدث أبي يعقوب يوسف الغماري المحساني حين خطر على قسنطينة راجعا إلى الشرق ، فأقام عندهم مدة لتوالي الأمطار، فقرأ عليه وهو إذ ذاك كبير، وفارقه وهو عنده مجهول وما عرف من هو حتى عرفته به حين رأيت خطه الذي كتبه على الموطإ، وقد قرأت عليه صدرا منه وحدثني به عنه، وسمعته يقول: سمعت الشيخ الصالح المسن حسن الحفناوي يقول: عمرت خمسا وثمانين سنة، ما تم لي بها سرور قط إلا ثلاثة أيام ...الخ .[10]

6- القلقشندي :

ووصفها القلقشندي[11] أيضا، فقال : ومن المدن التي بأعمال بجاية، قسنطينة، وهي مدينة من المغرب الأوسط في أواخر الإقليم الثالث، قال ابن سعيد (اقتباس العرض والطول)، قال في "تقويم البلدان " وهي على آخر مملكة بجاية وأول مملكة افريقية ، قال الإدريسي (اقتباس فقرة من النص الوارد أعلاه) .

وفي شرقي قسنطينة في آخر مملكة بجاية ،مرسى الخرز ، ومنه يستخرج المرجان.[12]

7- ابن حوقل :

أما ابن حوقل[13] فوصفها بقوله : وأما قسنطينة التي لكتامة ، فمدينة قريبة الأمر تداني ميلة نقاوس في حالهما [14] .

8- فندلينشلوصر :

وفي القرن التاسع عشر الميلادي، زار قسنطينة (فندلينشلوصر) أيام أحمد باي (1832-1837)، وهو شاب ألماني جاء إلى الجزائر، مع فرقة عسكرية فرنسية، وقد وقع مع عدد من الجنود الفرنسيين يوم 12 افريل 1832 بين أيدي رجال المقاومة الجزائرية، فحمل إلى المناطق الجبلية، وفي النهاية استقر به المقام في مدينة قسنطينة، فعاش في قصر أحمد باي بصفته مملوكا من مماليكه ما يقرب من خمس سنوات مارس خلالها عدة أعمال ، ثم عاد إلى بلاده بعد احتلال قسنطينة مباشرة سنة 1837م، وأصدر كتابا سنة 1839 م بعنوان: قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)، ترجمه إلى العربية وقدم له الدكتور أبو العيد دودو، رحمه الله ،ومنه استقينا هذه المعلومات ...

وقدم لنا (شلوصر) وصفا دقيقا لمدينة قسنطينة ونواحيها في هذه المرحلة ، فقال: « تقع مدينة قسطنطينة– هكذا يسميها التركي، أما العربي فيدعوها قسمطينة– فوق صخور وعرة، تحيط بثلاثة أرباعها ، وفي سفح هذه الصخور يسيل نهر عرضه حوالي 150 قدما، وعمقه ثلاثة أقدام، ويطلق عليه الأهالي اسم الوادي الكبير، ويأتي من الجنوب الشرقي، ويتصل على مسافة ربع ساعة من المدينة بوادي الرم، كما يسميه العرب، أو وادي البرميل كما يسميه القبائل في الزاوية اليمنى، ويتجه عند زاوية المدينة الجنوبية نحو الشرق، وهكذا يمر بالجهة الجنوبية والشرقية والشمالية من المدينة بين صخور عظيمة، يتراوح علوها يمنة ويسرة ما بين أربعة أقدام وستمائة قدم، وتتباعد عن بعضها في أعاليها بمقدار ثمانمائة قدم، ويأخذ طريقه بالتالي إلى الشمال الغربي من المدينة .

ولذلك لا يمكن أن تهاجم مدينة قسنطينة من الناحية الشرقية ، ولها أربعة أبواب ، وهي باب القنطرة، الذي يقع في الشرق ، ولكنه يتجه نحو الجنوب الغربي ويؤدي إليه فوق هوة الصخور جسر حجري قوي يقوم فوق ثلاثة أقواس، يقال إن الإسبان قد بنوه قبل مدة طويلة، أما الأبواب الثلاثة الأخرى فتقع في الجنوب الغربي في صف واحد، يبعد الواحد منها عن الآخر بحوالي200 خطوة، فيقع في الناحية الغربية باب الرحبة، وقد أصبح القسنطينيون منذ سنة 1836 م يطلقون عليه اسم الباب الجديد، لأنه كان في السابق بابا بسيطا، ولكنه قوس الآن بقوس وباب، وقربه بطارية تحتوي على خمسة مدافع .

أما الباب الشرقي، الذي يدخل الوادي منه، فهو باب الجابية، وباب الوسط هو باب الواد، كانت هذه الأبواب كلها تتجه نحو الخارج ، بحيث كان في وسع المرء حتى سنة 1836 م أن ينظر بعيدا عبر الباب المفتوح، وبعد أن أطلق عليه الفرنسيون النار بني أمام كل منها قوس كثافته 12 قدما، فلم يعد من الممكن أن تصيبها القذائف مباشرة، والمدينة مرتفعة في الزاوية الشمالية التي يغادرها منها النهر، بالنسبة للأرض المنبسطة، ولكنها أقل علوا في الجنوب الشرقي وأكثر انخفاضا في الجانب الغربي، وتوجد في جميع جهاتها طرق رديئة بسبب الرمال العميقة، والمدينة محصنة في هذا الجانب بواسطة أربعة حصون ، وأعلى نقطة فيها هي القصبة .

إذا دخل المرء المدينة من باب القنطرة ، فيصل أولا على بعد ألف خطوة إلى رحبة قطرها ستون خطوة، وتوجد عن يمينها وفوقها قليلا صخرة ، أقيم فوقها سنة 1836 م حصن يحتوي على مدفعين، ومن هذه الرحبة يصعد الشارع نحو الشمال في اتجاه باب القصبة ، التي تقع إلى الشرق منه بمسافة قصيرة، وفي وسط هذا الشارع يقع سوق السلاح، ويدعى سوق العصر أيضا ، وحتى هنا يمكن أن تمر به العربات، ولكنه يتجه بعد ذلك نحو الشمال ويصبح عبارة عن زقاق ضيق، وهناك وعن يساره ثلاثة شوارع تمتد أفقيا، أحدها يفضي إلى باب الماء، فيؤدي أولا إلى سوق العمل، ثم إلى وسط الشارع والمدينة، ويمر قرب دار الباب القديمة . والشارع الأفقي الثاني يمر عبر الرحبة المذكورة إلى يسار سوق السلاح مباشرة، ثم يتجه نحو باب الجابية، فيمر أولا قبالة سوق العسل عبر سوق الجلد ، ويمر في وسطه بسوق القمح ويمتد الشارع الثالث من الرحبة على امتداد سور المدينة نحو باب الجابية، ويحتوي أيضا قسما من الشارع السابق، وهو الواقع فيما بين الباب وسوق القمح، على عدد كبير من الحمامات العامة والمقاهي، وهذه الشوارع الأفقية ترتبط فيما بينها بعدد كبير من الأزقة المتقاطعة ، لا أريد أن أذكر منها إلا أهمها ، هناك زقاق عريض ملتو ، يمتد من الشارع المذكور أخيرا نحو سوق القمح، ويمتد من دار الباي القديمة زقاقان هامان في زاوية حادة ويمضيان معا إلى باب الماء والزاوية الواقعة بينهما ، وهي مليئة بالأزقة الصغيرة، تدعى كلها سوق السراجين، إذ تطرز فيها السروج وتعد المصنوعات الجلدية الملونة، وإلى جانب سوق القمح مباشرة توجد دكاكين الحدادين، وبعدها بقليل حوانيت الأقمشة التي يملكها اليهود، ويوجد هناك حيث يجتمع الزقاقان سوق صغير للخبز، وخلفه، في اتجاه باب الماء، توجد دكاكين العطارين المسلمين .

ولا يجوز أن يحمل في الأمكنة التي يمر بها الزقاق قرب دار الباي القديمة ميت أو كفن وهناك زقاق آخر أفقي من دار الباي القديمة ويتجه غربا نحو باب السوق، أما دار

الباي القديمة فهي مرتبطة بدار الباي الجديدة، بوساطة زقاق الحظيرة، الذي يقع شمال الزقاق السابق ،وإذا نحن أخذنا الشارع، الذي يؤدي من باب القنطرة إلى القصبة، فإننا نجد إلى الجانب الأيمن، فيما بينه وبين الصخور المنحدرة، شارع اليهود، الذي يربطه بسوق السلاح زقاق، وفيه يسكن صائغ والذهب والفضة من اليهود، وهذا السوق، وكذلك الشارع الممتد حتى باب القنطرة يحتوي على بيوت الأثرياء اليهود، وهناك أخيرا شارع يمتد من القصبة إلى باب الرحبة، ولا يسكنه سوى الخاصة .

وباب القصبة قديم، وتسنده أربعة أعمدة، ويوجد فوقه ضلع وعظم منزوع من ركبة إنسان، ولم أستطع معرفة ما إذا كان عظما حقيقيا أم أنه مصنوع من الحجارة، لأنهما كانا عاليين جدا، أما الأهالي فكانوا يعتقدون أنها من بقايا روماني قديم، والقصبة ميدان فسيح، وهي أكبر من قصبة الجزائر بمقدار النصف، وتحيط بها عدة بنايات عالية، يسكنها المفتي، وهناك قوس يؤدي عبر هذه البيوت إلى ميدان ثان، يستطيع المرء منها أن يرى المدينة كلها، وفيه أقمت بطاريتي، وتوجد بها فتحة مربعة قطرها 6 أقدام، يصل المرء منها إلى قبة جميلة محاطة بحجارة مربعة، قطرها 80 قدما، كان يلتقي فيها، ولعللها كانت بئرا في الأصل، بمن يأمر الباب بخنقهم، أما الباب الذي يدخل المرء منه عبر الصخور ليصل إلى المدينة فقد سبق ذكره .

ويحتوي قصر الباي على أربعة أجنحة في مربع مائل، وقد خصص الخارجيان منها لإسطبلات الخيول، ويحتويان على أكثرها نبلا، ويكون الجناح الغربي البلاط والمدخل الوسط إلى غرفة الباي، التي تقام فيها المجالس القضائية ، ويستقبل فيها الأجانب، والغرف الأرضية كلها مغطاة بالأجر الأحمر، وجدرانها مدهونة أو مغلفة بأنواع حجرية محروقة ومطلية بمادة لامعة، أما الغرف العلوية فذات ألواح، وتغطي أرضيتها زرابي تركية ملونة وجدرانها منجدة .

وتوجد في وسط القصر ثلاث حدائق مربعة مفصولة عن بعضها، وتربط بينها طرق وقد أقيمت حولها آبار محاطة بجدران لريها، ويحمل إليها الماء، الذي يجلب بالبغال من خارج القصر، بواسطة مجار مائية، وفي إحداها حوض، قطره 10 أقدام، وهو مصنوع من قطعة من المرمر، جلبت سنة 1835م من تونس فوق عربة صغيرة، ويحتوي الحوض على فوارة صغيرة، ويحيط بالحدائق رصيف من المرمر، يتراوح عرضه ما بين 8 و 12 قدما، وله أعمدة مرمرية جميلة، وفيه أبواب تؤدي من جميع الجهات إلى القصر، ولكنها لا تفتح إلا من طرف الباي نفسه .

وبجدران القصر المواجهة لهذه الحدائق رسوم وضعها القسنطينيون، لا تنم عن موهبة فنية، ويقال إن هذه الرسوم تمثل مدن الجزائر، ووهران، وعنابة، وقسنطينة، والقصر محاط في الخارج بسور من الطين الخام، ولذلك فالسور تافه جدا، وهناك جناح يمتد إلى حد ما نحو سوق العسل، مزود بنوافذ زجاجية، وفيه تقع أحب غرفة إلى الباي، يجلس فيها ساعات طويلة، يتأمل جياده المقابلة له أو المارة من الأهالي .

وعندما نتجه إلى خارج المدينة نجد قبالة باب السوق، تلالا عاليا مساحته 300 خطوة عرضا، و900 خطوة طولا ، وهو كدية عاتي، وترتبط في الجنوب الغربي بسلسلة صغيرة من الجبال ، ثم تنحدر في اتجاه الجنوب والغرب وتوجد بينه وبين الأبواب الثلاثة ساحة كبيرة، تحيط بها مقبرة، وكان بكدية عاتي عدد من قبور المرابطين الذين ماتوا سنة 1836 م، واستعملت حجارتها لبناء الحصون، وعرف بيت مبني على الطريقة الشرقية ، وواقع تحت الكدية، نفس المصير، ويقال إنه بيت باب سابق، انجليزي الأصل ، لقي حتفه في تونس بطريقة شنيعة، وقرب هذا البيت فتحة، أخذت قسما كبيرا من الساحة .

وفي الزاوية القائمة التي يلتقي عندها الواديان، توجد خربة رومانية ، تحتوي على ستة أعمدة، كان الغرض منها إقامة جسر أكثر منه إقامة قناة، فالضفة الواقعة في اتجاه المدينة أعلى بكثير من الضفة الأخرى، وبين هذه الخربة والوادي الكبير بئر تدعى سيدي ميمون .

ويقع في شرقي المدينة سيدي مبروك فوق هضبة كبيرة، ويوجد في الشمال تل آخر، يدعى سيدي عبد القادر، والأراضي الواقعة في الغرب والشمال متنوعة جدا وكثيرة الخصوبة وهناك سهل جميل يمتد من المدينة حتى جبال القبائل، وبه كثير من القرى، وهو مستغل بصورة جيدة، وخاصة في المناطق الممتدة على ضفة الوادي الكبير، وتقع مدينة ميلة في المكان الذي يبلغ فيه الوادي الجبال، وتبعد عن قسنطينة بحوالي ست ساعات تقريبا (لقد وهم الكاتب هنا، فالمسافة بين قسنطينة وميلة حوالي ساعة ونصف فقط)، وهي مدينة صغيرة، تحتوي على 200 مسكن، تحتل سهلا خصيبا، ولها حدائق جميلة، ويزرع فيها العنب بكثرة، ...، وبها حمضيات كثيرة، مثل الليمون، والبرتقال، والبطيخ الجيد، والرمان الكبير الحجم .

وتوجد في بلاد القبائل طيور كثيرة، تقيم أعشاشها فوق صخور قسنطينة بصورة خاصة، ويوجد بها كثير من النسور المرعية، التي تظهر هنا بكثرة، وتوجد كذلك طيور أليفة، وتعتبر مدينة قسنطينة بالإضافة إلى العصافير والخطاطيف، موطن طيور اللقلق، وأن أعشاشها فيها لا تكاد تحصى في أغلب الأحيان، ومن عادة اللقلق أن يقيم عشين فوق بيت واحد، وتأتي هذه الطيور في الربيع إلى قسنطينة ونواحيها في أعداد تفوق الألف، وتترك

المدينة مع صغارها في الخريف، لتنتقل إلى مساكنها في الصحراء، وأهالي قسنطينة يجلون هذه الطيور، ولا يجرؤن على قتل واحد منها، والباي نفسه من هواة صيد الطيور، وكان من عادته أن يقف من نافذة قصره أو فوق القلعة ببندقيته ليصطاد الطيور المفترسة الصغيرة منها والكبيرة، ولكنه كان يحافظ على حياة طيور اللقلق.[15]

الهوامش :

1 - ولد أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي الملقب مهذب الدين، في سنة 574 هـ (1178 م) ببلاد الروم وأسر في بلاده صغيرا وابتاعه تاجر بغداد ووضعه على دفاتر تجارته والتاجر يسمى عسكر بن ابراهيم الحموي، ومن هنا لصقت به هذه التسمية، وعلى الرغم من محاولته تسمية نفسه عبد الرحمن، بدلا من ياقوت، الذي هو من أسماء العبيد، فإن هذا الاسم قد لازمه وقد أرخ له به القدماء والمحدثون، عاش ياقوت بعد عتقه في سنة 596 هـ، من نسخ الكتب بالأجرة حتى عطف عليه مولاه واستخدمه في بعض الأعمال التجارية، ولما توفي مولاه قام برحلات انتهت به إلى مرو وخوارزم، ولياقوت ديوان شعر يقع في عشرة كراريس اطلع عليه ابن خلكان، وتوفي في حلب سنة 626 هـ، وأهم مؤلفات ياقوت بدون شك ، هما المعجمان: معجم البلدان، ومعجم الأدباء (إرشاد الأريب).
(اسماعيل العربي، المدن المغربية ص 193،المؤسسة الوطنية، للكتاب، الجزائر، 1984، وانظر ايضا عن حياة ياقوت وأثره، وفيات الأعـــيان لابن خلكان، ج 6، ص: 122-126).

2- إسماعيل العربي، المرجع نفسه، ص 193 .

3-عبد الله بن العزيز بن أيوب (أيوب عبيد الله البكري) جغرافي اندلسي، ينحدر البكري الذي نجهل تاريخ ميلاده من أسرة من الأمراء تنتسب إلى بكر بن وائل، كانت تتوارث الملك خلال فترة قصيرة، في عهد ملوك الطوائف، على ولبة heulva وشلطيس salthés وما بينهما، ولكن والده عبد العزيز، عجز عن الاحتفاظ بإمارته إزاء ضغط المعتضد بن عباد، ملك اشبيلية، الذي كان يحاول بسط سلطانه على الاندلس كلها، فسلمها إليه وخرج بأمواله، هو وولده سرا إلى قرطبة، ولما أتم البكري دراسته على عدد من كبار العلماء، وفي مقدمتهم العذري وابن عبد البر، التحق بخدمة محمد بن معن، صاحب المرية الذي اصطفاه لصحبته ورفع مرتبته ثم بعث به في مهمة دبلوماسية إلى باديس بن حبوس، صاحب غرناطة، حيث استمر على ممارسة نشاطه العلمي حتى توفي في سنة 487 هـ (1094 م) بعد حياة رخية عرف فيها ملذات الحياة وتذوق منها كثيرا (اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 39، انظر الصلة لابن بشكوال، ص : 282، وطبقات الأطباء ،ج 3، ص:52، وبغية الوعاة، ص:282، وغيرها) .

4-اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 191-192.

5- ابو عبد الله محمد بن عبد الله إدريس الحموي : أمير المؤمنين العالي بأمر الله من سلالة إدريس الأكبر الذي أقام دعائم دولة الأدارسة في اليلي، ثم بفاس، الدولة التي دامت نحو قرنين من الزمن، وبعدما سقطت هذه الدولة تحت هجمات الأمويين المتوالية من الأندلس، وهجمات العبديين من الشرق، وفي سبتة ولد أبو عبد الله في سنة 439 هـ وأخذ علومه الأولى، ومن هناك انتقل الى قرطبة حيث أتم دراسته قبل أن يقوم بعدة رحلات حملته بعدما تجول في الأندلس نفسها، إلى شواطئ فرنسا، انجلترا، وإلى آسيا الصغرى، ثم ألقى عصا الترحال اخيرا في سنة 1138 م في بلرم، في بلاط روجر الثاني النورمندي، بناء على دعوة من هذا الملك، وهناك في بلرم صنف الادريسي كتابه المشهور "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق"، الذي أهداه إلى روجر الثاني، فكان بسبب ذلك يعرف في المكاتب العربية باسم الكتاب الرجري (اسماعيل العربي: المرجع السابق، ص : 42-43).

6- اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 192-193.

7- ولد أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد بن عبد الملك بن سعيد المعروف بابن سعيد المغربي في الثاني والعشرين من شهر رمضان سنة 610 هـ (فبراير 1204 م) في قلعة يحصب alcaa la real من أعمال غرناطة، القلعة التي كانت مقرا لإمارة بن سعيد والتي تحمل اسم الأسرة في بعض الكتب وتسمى أيضا: قلعة بني سعيد ، توفي في دمشق سنة (685 هـ) على أرجح الأقوال.

8- اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 193-194.

9- ينحدر محمد بن محمد العبدري، ابو عبد الله من سلالة بني عبد الدار بن قصي وينتمي إلى مدينة بلنسية بالأندلس، ولكنه أقام مدة خلال الفترة التي سبقت رحلته في الصويرة (موجدور) حيث ترك أسرته عند قبيلة حاحاه عند الشروع في رحلته ، وكذلك أقام مدة من الزمن في قرية تقع على الطريق بين بسكرة وتوزر، بدأ العبدري في رحلته برفقة ابنه لأداء فريضة الحج في سنة (688 هـ/1289 م) عن طريق الولايات الشرقية للمغرب الأقصى ثم الجزائر وتونس، ثم نزل بمصر ومن هناك رافق قافلة الحجاج إلى مكة المكرمة .

10- اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص110.

11- هو شهاب الدين بوب العباس أحمد بن علي ، صاحب صبح الأعشى ، مؤرخ وبحاثة ، ولد بمصر سنة (756هـ/1355 م) وتوفي سنة (821هـ1418 م) وهو ينتمي إلى بيت يتوارث افراده العلم أبا عن جد، من مؤلفاته: صبح الأعشى، وهو موسوعة ضخمة نشر سنة 1913 بعناية احمد زكي، ونهاية الإرب في معرفة قبائل العرب، نشره العلامة العراقي (السويدي) في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي .

12- اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص195.

13- هو ابو القاسم محمد بن حوقل النصيبي، لا نكاد نعرف شيئا عن ميلاده وشبابه ،لكنه يخبرنا في مقدمة كتابه عن أنه غادر مدينة السلام للقيام برحلة في 7 رمضان 331 هـ، من أجل الدرس والتجارة والكسب، زار المغرب العربي، الأندلس، فارس، الهند، صقلية، العراق وغيرها، أتم تأليف المسالك والممالك الذي بدأه الاصطغري سنة 367 هـ وهي السنة التي توفي فيها (انظر اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 33، والرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص 42/39).

14-اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص191.

15- فندلينشلوصر، قسنطينة أيام احمد باي (1832-1837)،ترجمة : د.أبو العيد دودو، ص73 وما بعدها، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر .